سميح القاسم

دبكة الموت

لفّ لي سيجارة يا طانيوس شاهين
انا قادم لاشمت معك
نشمت ؟ ولكن بمن ؟
بحجل صنين الهارب من الموت
الى متاريس صهيون على جبل الشيخ ؟
بالظل المتكسر ؟ بالضوء المتكسر ؟ بالقلب المتكسر ؟
نشمت ؟ ولكن بمن ؟
باوردتنا المفرقعة ،
زجاجات شمبانيا في كوكتيل بنتاغوني ؟
صب لي فنجانا من قهوتك المره
من دموعك المره
من دمك المر
يا طانيوس شاهين ، انني عائد الى الموت
على ايقاعات الدبكة الدموية ..

* * *

تهبط دموعي في مطار بيروت الدولي
لتقدم اوراق اعتمادها
سفيرا للعذاب العربي ، للصودا الكاوية العربية
لا نلة من حرس الشرف
لا بساط احمر
لا باقة زهر عند سلم الطائرة . .
(غود مورننغ مستر سايكس)
(بون جور مسيوبيكو)
يدفع غضبي بقوات انزاله الصاعقة
على خليج جونيه المنفرج
كفخذي قحبة
تنتظر رجال البحرية الأميركية
(بون جور مسيو بيير)

* * *

من هناك
من كومة الصفيح ، البريزيت والطوب العاري
من مخيم تل الزعتر
تخرج امي بملاءتها الفلسطينية
لتبحث عن جثتي في حي الفنادق الفخمة
تتمشى قليلا على كورنيش بيروت
مستنشقة الهواء المطلي بدم اخوتي
تشتد حرارة القصف المركز
تهرع امي الى الظل
وما من ظل هناك سوى ظل صليبك
ما من ظل هناك ، يا طانيوس شاهين
سوى ظل صليبك
نسور لبنان تحدجنا باحتقار
من قمم شاربيك
أما وجهك النبوي فقد مال قليلا
على صدرك الكث
باشجار الارز العتيقة
تضرع امي من بين دموعها :
اما آن لهذا الفارس ان يترجل ؟ !
غير ان رجال الفلانج لا يسمعونها
في غمرة نيرانهم المنصبة على اللغة العربية
انهم يحلمون باللغة الفرنسية
ويطلقون النار بالفرنسية ..
(بون جور ايها العار !)

لم اقلها من قبل لكنني اقولها اليوم :
الجهة التي تشرق منها الشمس هي جهة الشرق!
لم اقلها من قبل لكنني اقولها اليوم !
الليل ليل والنهار نهار !
لم اقلها من قبل لكنني اقولها اليوم :
لبنان .. ارض عربية !
اما هؤلاء الحمقى
فيواصلون اطلاق نيرانهم
بالفرنسية .. طبعا !
لن اقول :
اللبناني اخو الفلسطيني
لن اقول :
المسلم اخو المسيحي
لن اقول :
تآخينا هلالا وصليبا
لكنني اقول :

الثائر اخو الثائـــر !

* * *

بذقن غير حليقة
بلا حقائب ولا نقـــود
يستقل جبران خليل جبران اول طائرة
ويغادر مونه عائدا الى لبنـــان
لان قوادي الفلانج
يسحبون سلماه الغالية من شعرها
ليبيعوها في نوادي نيويورك الليلية
قبل ان تهبط الطائرة
على مدرج النار في مطار بيروت الدولي
يصرخ جبران من قمة العالم :
ايهـــا الخونة :
لن تكون سلماي راقصة بطن في بيغال
يرسمون شارة الصليب
ويصرخ جبران من قمة العالم :
ايهـــا الخونة :
لا ترسموا شارة الصليب ، فانا ابصركم
تصوبون رشاشات يوضاس
الى صـــــدر المسيح !

يظهر ويختفي
يتهيأ ويتلاشـــى
يشتعل ويخبـــو
لكنه ، على اية حال ، يظل هناك
ممتطيا جواده العربي الابيض
صائلا على فلول الجراجمة وقلاع الروم
يظل هناك ، ابدا في الابـــد ..
يظهر ويختفـــي
لكنه ... هنـــاك !

يقرع بابي الاحمر في منتصف الليل
اصرخ من تابوتي (سجّوا جثماني ، سجّوا جثمان الحب قديما !)
اصرخ : منذا ؟ منذا يقرع بابي الاحمر في منتصف الليل
ادخـــل
او فارحـــــل
(سجّوا جثماني ، سجّوا جثمان الحب قديما !)
لا تقرع بابي في منتصف الليل ..

ينفرج المصراعان ، تحدق في من الليل القاحل عينان
يهتز زجاج شبابيكي المعتمة ، يمور ضريحي الفاخر
تصدي بالصرخة شمعات التابوت البيض ،
تدوي الجدران :
ـ اغريق يخشى من بلل ؟
يا هذا !ادخل او فأرحل
لكن لا تقرع بابي الاحمر في منتصف الليل .
لا يدخل ، لا يرحل . .
ولذا يهجرني النوم الوادع ، يسكنني الصحو القاطع كشفار سيوف الاجداد
واظل هناك ، جوادي الموت العالي
ممتطيا صهوته ، وعلى خاصرتي يهتز غضوبا
سيف من بين سيوف الاجداد
في كفي مقبض سيفي ، في كفي قائمة سجلت عليها اسماء الاوغاد
يصهل جواد الياسمين ، يحمحم بالقهر
تحين من فارسه التفاتة نحو ميناء بيروت
الجراجمة يحتطبون ارز لبنان الدهري
يحملونه مراكب صهيون
وينقلونه على البحر أرماثا الى تل ابيب
حيث يشيدون هيكلا جديدا لسليمان
أما اعمدة الهيكل فأرز لبنان الدهري
اعمدة الهيكل اعمدة الحكمة المنهارة
اعمدة اللهيب والدخان ..

امرأة محلولة الشعر
تهرع من « ساحة الشهداء »
تلطم صدرها العاري المدمى
وتمد ذراعيها كحربتين نحو ميناء بيروت
حيث يحملون شهداء الارز
وينقلونهم أرماثا على البحر الى صهيون .
وعلى صخرة « الروشة »
يقف قدموس بكل محنته
يدبك دبكة المـــوت
يرتجف قليلا ويقذف بنفسه الى البحر ..
لا بأس يا سمك القرش
نحن اليوم من عائلة واحدة
لا بأس عليـــك !

« الاخبار » اللبنانية
٢١ شباط ١٩٧٦